الصورة والتصور والتصوير *

للأســـتاذ الحومانى

صاحب مجلة الدروبة

هنالك فى حيّز الشعر صورة وتصور وتصوير ، ولكل منها نصيب من الجمال فى الحياة ، ومناط الجمال فى كل منها إنما هو الفن إذا صح إطلاق الفن وحده على الشعر كما سترى . فالصورة إحدى ظواهر الطبيعة وهى إما حقيقة أو خيال — والتصور مرور الفكر بهذه الحقائق يتصفح صورها — والتصوير إبراز هذه الصور إلى الخارج بشكل فنى ، فالتصور إذن هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر فقط ، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة ، والصورة يتعاقب عليها فنان : فن المبدع وفن المصور ، ويقال للمصور مبدع إذا كانت الصورة من خلقه ، وهو يتصفح الحقائق فينتزع منها صورة مركبة نسميها خيالاً . فالخيال لايخلو من رمز يشير لك إلى المبدع الأول مهما افتن الشاعر فى صرفك عن لحاظه . فالمرأة ظاهرة من ظواهر الفن الطبيعى ، وتصويرها إحدى ظواهر الفن الصناعى . فجمال النفس فيها انما هو جزء من روح مبدعها الأول ، وجمال الشعر فى تصويرها انما هو جزء من روح مبدعها الأخير .

والتصور الذى هو لحاظ الفكر صور الحقائق يختلف شدة وضعفاً باختلاف الفكر الذى هو أداته ، فتصور الشاعر جمال الفن فى احدى ظواهر الحياة إنما هو الاحاطة بدقائقها واكتناه السر الذى كانت له ، والصورة الفنية إنما تتكون من جليل تحف به دقائق يمتاز بالوصول إليها شاعر الفن من غيره ، ومناط الجمال فى تصوير الشاعر وقوفه على دقائق لا يتبينها فى الصورة الفنية سواه ، ففى كل صورة فنية طبيعية كانت أم صناعيـــة من معجزات الفن ماهو ظاهر وماهو خفى . فالشاعر يمتاز من غيره بتصور هذا الخفى ثم لايكون فناناً حتى يصوره . فالرسام إنما يصور لك المرأة الجميلة حتى كأنك ترى شخصها ، والشاعر إنما يصفها لك حتى كأنك تلمس روحها ، إنما يصور ذلك ويصف هذا ، وكلاهما شاعر فنان ، بفضل ما يدركان من خفى ما أبدعه الفن فى الصورة الجميلة فيصوراتها . من ذلك نصل إلى أن الشاعر لايفهمه كالشاعر وناقد الفن يجب أن يكون فناناً ، ولا ننس أن الشاعر إنما يفهم الشاعر الذى هو دونه أو مساوله ، وأما من حلّق عليه فلا ينبغى له أن يمد بصره إلى أفقه وهو يحاول نقده حتى يكونه ، على أن الشاعر لايجب فى النقد أن يكون فناناً ، فرب شاعر غير فنان يستطيع بما أوتيه من فكر أوتى دقة التصور أن ينقد الشاعر الفنان .

فالدكتور طه حسين يستطيع أن ينقد أمير الشعراء لا من حيث كونه (١) شاعراً فناناً ، بل من حيث كونه شاعرا فقط ، إذ هو فى الفن دون أمير الشعراء ، ولكنه فى تذوق الفن قد يكون فوقه أو مساويا له ، فليس الشعر مرادفا للفن ولا الفن مرادفاً له . وقد يكون الشعر فنّا كما قد يكون الفن شعراً . والشاعر الفنان يستطيع أن ينقد الشاعر فناناً وغير فنان ، فكل من أبدع فى التصوير كان فى حيزه الابداع فى التصور ، وقد يكون فى حيز الابداع فى التصور الابداع فى التصوير ، وإذا صح لنا أن نطلق على الشعر أنه تصوير الجمال فى الحياة صح لنا أن نطلق عليه جمال التصوير ، فحيث يكون تصوير الجمال يكون جمال التصوير ، وقد يخامر السامع ريب فى صحة الأول ، وأن الشاعر قد يصور قبيحا فى الحياة فلا يخرجه عن كونه شاعرا فيما صور ، وجوابه سهل فيما إذا لحظنا ثبوت كون الجمال نسبيا فى الحياة وأنه لا قبح فيها ، وإنما هو جميل كما مر بك فى القول على الجمال .

وأما إذا اعتمدنا القول فى أن من الصور الفنية فى الحياة ما هو حسن وما هو قبيح لزمنا القول فى أن حد الشعر بجمال التصوير أصح ، ولزمنا من جهة أخرى نفى الجمال المطلق عن الفن الطبيعى وهو مرآة الفن الصناعى ، فلزم الفرق بين فن الطبيعة وفن الانسان من حيث حده وتعريفه ؛ وهما فن واحد ، إلا أن يكون القبح فى الصور الفنية عارضاً بعد كونها والجمال ذاتى فيها فيستقيم إذ ذاك تحديده الثانى .

فالطبيعة لم تبدع غير جميل ، وما يتراءى لنا قبيحاً فلعارض حور بجراه الطبيعى فى نفوسنا ، أو لسرّ فيه خفى عنا إدراكه فعز علينا مناط الجمال فيه ، وليس الجمال فى الصورة أو التصور مناطا

* من كتابه (البقرية) وهو تحت الطبع

(١) أى كون طه حسين

للجمال فى التصوير ، ولا شىء من جمال التصوير أو قبحه يستلزم جمال الصورة أو قبحها ، فأى جمال فى صورة الأحدب يستلزمها جمال تصويرها فى قول الشاعر :

قصرت أخادعه وغاب قذاله ... فكأنه مترقب أن يصفعا
أو أنه قد ذاق أول صفعة ... وأحسّ ثانية لها فتجمعا

فاللازم إنما هو جمال التصوير فقط ، وجمال التصوير يتحقق فى نقل الصورة على أتم وجه بأسلوب جميل ، والصورة أعم من أن تكون فى الخارج كصورة الأحدب التى مرت بك أو فى النفس كما فى قوله :

أعانقه والنفس بعد مشوقة ... اليه وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاه كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى من الجوى ... ليطفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يطفى غليله ... سوى أن ترى الروحان تمتزجان

فلم يكن الشاعر ليصف لك فى هذا المشهد صورة العناق فى الخارج ، وإنما يريد أن يصور لك حالة نفسية تعتريه كما تعترى كل عاشق ، وهى انفعال النفس بما تجده فى قرب من تحب . وبلوغها حداً لا تشعر معه حتى تبلغ النهاية فى ثورتها وهى امتزاج الروحين ، ولم يكن ليطفىء ثورتها تلاصق الجسدين ، ووضع الشفاه على الشفاه وها طريقها الى الغاية التى تصبو اليها . على أنى لا أرضى عن الشاعر فى إنكاره أن وراء العناق تدانياً ، فالحب اسمى من أن تناله المادة وهو وليد الروح ، ولعل دموع الحب عصارة هذه النفس المتألمة من وراء انفعالها به ، فاذا كانت الروح مناط هذا الحب فأنى للجسم أن يطفىء ثورته بالتقبيل أو العناق ، والصلة بين المتحابين إنما تتحقق فى امتزاج روحيهما ، فقد يتلاصقان ولما يزل هنالك بعد بين الروحين ، وحجاب كثيف يحول دون امتزاجهما . أفلا يكون إذ ذاك تدان وراء العناق ؟ على أن فى البيت الأخير وجعله امتزاج الروحين مناط شفاء النفس دليلاً على أنه إنما يقصد بقوله (وهل بعد العناق تدان) أن العناق أقصى ما يبلغه الحب فى الصلة بين شخصى المتحابين لا أن مطلق التدانى مرة وراء الحب قاصر على العناق إذ صرح فيما بعد أن هنالك امتزاجاً فى الأرواح ، وهو أشد ارتباطاً فى الحب من العناق ، وأبلغ تدانياً منه .

اذا وصف الشاعر قبيحاً فأبدع فى تصويره ، فقد صور لك جمال الفن ، فكان صادقاً عليه اذ ذاك أنه مصور لجمال الحياة إذ الفن من الحياة ، فتصويره تصوير لجمالها أو لناحية من نواحى الجمال فيها . فقد لا نجد أثراً للجمال فى كوخ بالى قذر يمرح فيه الفأر وتعلو جدره العناكب ويسود أفقه النبق ، وقد جلس فى احدى زواياه شيخ بالى الطمر وبين يديه سراج ضئيل يقاسى الى جانبه آلام البؤس .

قد يبدو لك ذلك قبيحاً وأنت تشرف عليه أو تلج اليه فتصفر الحياة فى عينك ماثلة بين جدره . ثم اذا صور لك رسام مفنن حرك منظره من نفسك بين روعة الفن وجمال التصوير ما يقف بك خاشع الطرف بين يدى الفن وجلاله ، وهكذا تراك وأنت تقرؤه فى قول الصافى :

أكافح البرد فى سراج ... يكاد من ضعفه يموت
فى غرفة كلها ثقوب ... أوشكت قل كلها بيوت
يسكن فيها بلا كراء ... فأرٌ وبقٌ وعنكبوت

فمناط الشعر فى ذلك إنما هو جمال التصوير ، ولعل الخيال أوفى نصيباً من الحقيقة فيه . ففى قوله (يكاد يموت) و(كلها بيوت) و (بلا كراء) من جمال الفن ما لم تكد تعثر عليه فيما لو جردت الأبيات منها ، ولم يكن ليستطيع الصافى أن يصور لك الجمال فى البؤس لو لم يكن هو بائساً ، ولعل أشعر الناس بالبؤس هو ألصقهم به وأقربهم نفساً منه ـ اذ البؤس إحدى ظواهر الحياة فى الحى ، والصورة الفنية إما أن تكون حقيقة محضة أو ملفقة من الحقيقة والخيال ، فالأولى تتحقق فى نقلها لك كما فى الواقع حتى كأنك تراها حقيقة مجردة عن الخيال كما مر بك فى تصوير الأحدب فى قول ابن الرومى ، والثانية نقلها لك وليدة خيال يوهمك وجودها فى الخارج كقوله[1] :

خلا يدك البيضاء ذم وللندى ... على حافتيها مسرح ومقيل
حمت غصن المعروف أن يخطىء الجنى
وزهر الندى أن يعتريه ذبول

لم يشأ أن ينقل صورة الغصن أو صورة المعروف ولا صورة الزهر أو صورة الكرم ، وانما شاء أن ينقل لك صورة لفقها الخيال من كلتا الصورتين على طريق الاستعارة ومن ورائها التشبيه المطوى كما يحققه علماء البيان .

بيروت — الحرمانى

(١) الناظم صاحب المقال

٣ ـ الشـــخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشي

الفتش بوزارة المعارف

العناصر الرئيسية التي تتكون منها الشخصية القوية:

تكلمنا فيما مضى عن الشخصية وماهيتها، وقلنا إنها قد توهب بالفطرة، وقد تكتسب بالتربية الحق، وبينا أن الناس يختلفون في شخصياتهم كما يختلفون في ذكائهم وميولهم الفطرية، وذكرنا من العناصر الرئيسية المكونة للشخصية القوية ثلاثة عناصر وهي: الجاذبية، والنشاط العقلي، والمشاركة الوجدانية. واليوم نتكلم عن العنصر الرابع وهو الشجاعة فنقول:

ربما كانت الشجاعة أهم عنصر من عناصر الشخصية القوية في أوقات الرخاء والشدة على السواء، ولكن ما الشجاعة؟ الشجاعة قوة بها يتمكن الانسان من السيطرة على قواه مع ضبط نفسه وقت الخطر الذي يهدده، سواء أكان ذلك الخطر حقيقياً أم وهمياً.

وكما أن الشجاعة فضيلة في الجندي والملاح فكذلك هي فضيلة في غيرهما من بني الانسان. وهي خير مقياس يقاس به الشخص في أوقات الشدة حيث يتطلب الثبات أو الاقدام. وبهذا المقياس يمكن وضع الشخص في مرتبته الخاصة بين الشجعان أو الجبناء وبين العظماء أو العاديين.

وقد قيل، وقيل حقاً، إن الشجاعة تتوقف على القوة الجسمية والعصبية والعقلية والخلقية التي لدى الانسان. وإن المدنية الحاضرة قد قللت من الشجاعة بين الأفراد، فقد صرح أحد النظار السابقين لمدرسة (إيتون) الانجليزية الشهورة بأنه رأى غلاماً قد دخلت في عينه ذبابة، فحاولت أمه وأخواته الثلاث إخراجها بغير جدوى، ولم يكن الأمر في حاجة إلى أكثر من أن يتحمل الولد الألم دقيقة واحدة، ولكنه لم يتحمل آلام دقيقة — إن كانت هناك آلام. فأخذ في عربة إلى طبيب في مدينة تبعد خمسة أميال عن القرية: كل هذا من أجل شيء يسير كان في استطاعة أي فرد من الأسرة أن يقوم به بسهولة.

هذه حكاية عن شبان الأمس وأمهات الأمس بانجلترا. أما اليوم فتجد الأمهات والآباء يغرسون الشجاعة، وخلق الرجولة في نفوس أبنائهم من الصغر، ويعودونهم الصبر، وضبط النفس وكتمان الشعور، وتحمل الألم من الطفولة الأولى. وبهذه الوسيلة يبثون الشجاعة فيهم. ولا يظهر الخلق المتين ولا تبدو الشخصية القوية إلا بهذا النوع من الشجاعة، وهو القدرة على احتمال الآلام. وإن من يستطيع أن يحتمل خمس دقائق أكثر من غيره يمكنه أن يفوز بالنجاح والنصر، سواء أكان جندياً أم قائداً، متعلماً أم معلماً، غنياً أم فقيراً. وبالشجاعة يظهر الفرق الكبير بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة. والآن نريد أن نبين مظاهر الشجاعة وأثرها في النجاح في العمل وفي الحياة الاجتماعية فنقول:

مظاهر الشجاعة:

أولا: الشجاعة في ضبط النفس، وذلك بأن نقف موقفاً طبيعياً بكل شجاعة عند مقابلة الرؤساء أو عند الظهور أمام مجتمع لالقاء محاضرة أو الاشتراك في مناظرة، أو التعبير عن رأي، أو الدفاع عن مبدإ أو عقيدة، بحيث لا ترتعد أو نضطرب، ونظهر بأحسن مظهر في حديثنا وإلقائنا، ونبرهن بأعمالنا وآرائنا على مقدرتنا بكل لطف وأدب. وإذا لم يكن لدى الانسان قدرة على إظهار مقدرته بالعمل وضبط النفس فقد تضيع منه الفرصة الذهبية التي قد لا تصادفه مرة أخرى. وكثيراً ما تضيع الفرصة من الشخص، ثم يندب سوء حظه، ويشكو الظروف والمقادير، مع أنه لم يكن في حاجة الى أكثر من الشجاعة في انتهاز الفرصة حين سنوحها.

ولا سبب يدعو الانسان الى الخوف من أبناء جنسه. وقد يكون الخوف مبنياً على وهم لا أساس له. واذا وثق المتكلم من نفسه، وعرف ما يريد أن يقوله، وعرف كيف يعبر عن خواطره، وكيف يبرهن على نظريته بالعقل والمنطق، فانه يستطيع أن يطمئن الى نفسه، ويمسك بزمامها، ويقابل من يشاء، ويخاطب من يريد، مادام متحلياً بالأدب، واثقاً من نفسه، وكان عقله مرتباً وأفكاره منطقية، بحيث لا يتسرع في ذكر شيء يدل على عقل مضطرب، أو روح قلق، ولا يتظاهر بما ليس فيه. واذا وثقت مما تريد أن تقوله فهذا وحده كاف لأن تؤثر في نفوس سامعيك، وتنظر اليهم وتقابلهم بكل قلبك وجهاً لوجه، وتجعل قلبك وروحك في إثبات ما تريد إثباته، أو نفي ما تريد نفيه، فتتكلم بقلبك لا بلسانك.

ولا شيء يبرهن على الشجاعة ويخضد شوكتها أكثر من الهلع ؛ فحيثما وجد وجد الألم ، والقلق النفسي ، وتعب الضمير ، واضطراب العقل ، فتضطرب شخصية الانسان . ولئن كان الخوف ثمناً ندفعه في سبيل المحافظة على الحياة فالافراط فيه عيب من العيوب الانسانية التي يجب تهذيبها ، والتي تقضي بأن يفكر الأنسان في الشيء وفي نتائجه .

وبجانب المخاوف التي تلحق الشخص في حاضره ، وتحيط به من وقت لآخر ، مخاوف وهمية يتوهمها ، ويتخيل حدوثها في المستقبل ، فيقلق بأله ، ويضطرب فكره ، وتضعف شخصيته . وكثيراً ما تكون هذه الأوهام المخيفة مبنية على غير أساس ، ونادر أن تقع . وكم اغتممنا لتوقع مصائب لم تحدث ، ولن تحدث . وتكثر هذه المخاوف عادة لدى الشخصيات الضعيفة . أما ذوو الشخصيات القوية فلا يكثرون من الهموم من غير ما سبب ، ولأقل سبب ، بل يستقبلون الحياة كما هي ، ويواجهونها بما فيها من مسرات وأحزان ، وسعادة وشقاء على السواء ، يبتسمون بهدوء حتى في مواطن البكاء ، ويصبرون في مواقف البأساء . وهؤلاء جديرون بالنجاح في الحياة لشدة ثقتهم بالله .

والحياة مملوءة بالحوادث والمصائب ، والعجائب والغرائب . ولا يستطيع الانسان أن يعرف ما ينتظره في الغد من المقادير ، وقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فيفاجأ الانسان بأشياء ما كان ينتظرها ، كمرض أو فقد مال أو خسارة . فهذه وبكثير أمثالها من الحوادث تختبر رجولتنا ، ويعرف معدن الرجولة فينا ، وبالروح التي نقابل بها هذه الحوادث تظهر شخصيتنا أو تستتر . ولا تظهر الرجال إلا عند الشدائد والمصاعب .

وبما أن النجاح في الحياة ليس من السهل فيجب أن يتعلم الانسان كيف يبتسم في الأيام المظلمة ، كما يبتسم عند المسرات في أيام السعادة والهناءة . وينبغي أن يتعود الشجاعة والاحتفاظ بقواه عند الملمات حتى يكتسب إعجاب رفقائه واحترامهم ، ويثبت ثبات الطود في مهب الرياح . وليس من الشجاعة أن تكثر من شكوى الحياة والظروف والأيام ، فشكوى سوء الحال لن تغير ما حدث ، بل تذهب بنضرة العقل ، وقوة القلب ، وإن الفرق من الخذلان والهزيمة يؤدي إلى الهزيمة ، وقوة الأمل في النجاح مع التشجيع والمثابرة تحفظ روح الانسان وهمته ، وتبعث فيه كثيراً من الرجاء في الفوز ، وبخاصة اذا عمل بعقله وقلبه ويده ، وإن الاعتراف بالنقص فضيلة ، والعمل على علاجه شجاعة .

فنحن في حاجة الى الشجاعة التي بها نستطيع مواجهة المخاوف ومقابلتها بكل ثبات وصبر وتفكير حتى نتغلب على مصاعب الحياة ، ونقلل من الخوف الذي يهدم الرجولة من أساسها ، ويقتل الشخصية في مهدها .

وإن أعظم انتصار في الحياة هو الانتصار على النفس بضبطها وكبح جماحها ، والتغلب عليها . وليست الشجاعة في أن تنتصر على سبع مفترس فحسب ، ولكن الشجاعة في أن تسيطر على نفسك التي بين جنبيك . وأرقى مظاهر الشجاعة الصبر والتحمل عند المقدرة .

ثانياً : هناك مظهر آخر للشجاعة يتبين في التغلب على الصعاب التي تعترض الانسان في الحياة ، وإصلاح الأخطاء التي مر بنا سواء أكانت هذه الأخطاء منسوبة الينا أم منسوبة إلى غيرنا . وهناك كثير من المصاعب التي يمكن التخلص منها بقليل من الشجاعة والحزم والثبات ؛ وكثيرا ما يكون الجبن سببا في الفشل وعدم النجاح في العمل . وكما تكون الشجاعة في الاقدام على الشيء تكون في الاحجام عند تحقق التهلكة . ولا تقل الشجاعة في الأحجام والتريث حينئذ عن الشجاعة في الاقدام .

وممن كانوا مثلاً للشجاعة واقتحام المخاطر بين العرب خالد ابن الوليد : ومن أقواله : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه طعنة أو رمية ، ثم هأنذا أموت على فراشي حتف أنفي ، فلا نامت أعين الجبناء .

ثالثاً : تظهر الشجاعة في الاجابة وفي إبداء الرأي : ومن الشجاعة أن يجيب الانسان بكل أمانة وإخلاص عما يسأل ، وأن يبدي رأيه بكل صراحة ، ويدافع عنه من غير تغيير للحقائق ، ومن غير اضطرار الى الأنكار أو ذكر نصف الحقيقة خوفا من أن يظهر بنفسه الحقيقية كما هي ، وإذا اعترفنا بكل اخلاص أننا فعلنا كذا ، ولم نسمع رواية كذا ، أو لم نقرأ كتاب كذا ، أو أننا لانحب فلاناً فقد يعجب المستمع العادي ، ولكننا لو ذكرنا السبب بطل العجب . وهذا أفضل من تشويه الحقائق بالتغيير والزخرفة وتضليل الغير . وهناك أسئلة شخصية تدل على تطفل السائل ، وتدخله في شئون غيره ، فمثل هذه الأسئلة يجب أن تحارب برفض الاجابة عنها بكل أدب ، عقابا لذلك المتطفل ؟

محمد عطية الابراشي